أحمد بهجت

العارفون بالله

المختار الإسلامي

مقدمة

منذ أن نزل الإسلام على قلب رسول الله ﷺ ، انفسح المجال أمام الإرادة البشرية لتنمو وتتطور وتحقق ذاتها وطموحها بلا عوائق أو حدود أو سدود.

وتعرف على الإسلام من تأثر به، وآمن برفعته ودافع عنه واستشهد فى سبيله.. وكان هؤلاء العارفون بالله من عقليات ونفسيات وطبقات مختلفة.. ورغم اختلافهم فقد ذابوا فى نقطة واحدة وانتهوا نهاية واحدة.

رغم أهمية التطور وتسليمنا بضرورته ، فإن له أخطاره التى ينبغى أن يتوقف عندها العقل.. أحيانا تواجه الأمم فى مسيرتها نقطة تحول.. وهى نقطة يفطن لها من فتح الله بصيرته وألهمه الحكمة.

العارفون بالله

المختار الإسلامي
أسسها حسين عاشور عام ١٩٧٣
القاهرة : ١٥ شارع شهاب - المهندسين
ص ب ١٧٠٧ - القاهرة - رمز بريدى ١١٥١١ - تليفون وفاكس ٢٤٩٠٤١١

أحيانا تتعرض الأمم لتهديد أخطار أعظم من خطر الغزو الخارجى، ويتمثل هذا الخطر فى المادية الجارفة والخواء الروحى والتنافس على الدنيا.

وقد أنبأ بهذا الخطر لسان النبوة قبل حدوثه، فقد روى عن النبى ﷺ أنه خطب قبل وفاته خطبة حذر فيها المسلمين من هذا الخطر فقال:

ـ ما الفقر أخشى عليكم.. ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من قبلكم، فتتنافسوها بينكم كما تنفافسوها فتهلكم كما أهلكتهم.

لقد حل هذا الخطر سريعا، وتحققت مخاوف النبى ﷺ وبلغ ذلك أوجه فى عهد بنى أمية.

ولكن الله لطف بهذه الأمة، إذ قيض ـ لمواجهة هذا الخطر والوقوف فى وجهه ـ رجالا مخلصين ودعاة مؤمنين عارضوا هذا التيار الجديد بكل ماعندهم من قوى ومواهب، ومنعوا عددا كبيرا من المسلمين أن تجرفهم المادية وتستعبدهم الشهوات.

ولئن كانوا لم يستطيعوا تحويل التيار أو وقف سيره، إلا أنهم استطاعوا أن يوقفوا تدفقه ويبطئوا سيره، كما استطاعوا أن ينقذوا من لجته الذين غرقوا فيه، ولقد كان هؤلاء الدعاة والمصلحون منبثين فى عواصم المدن الإسلامية أو فى أطرافها، كانوا مرابطين على الثغور قائمين بالدعوة، واختلفوا فى اهتماماتهم.. منهم من كان أقرب إلى الفقه، ومنهم من كان أقرب إلى الأدب، ومنهم من كان أقرب إلى الفلسفة، ولكنهم جميعا يحملون أشرف لقب يمكن أن يحمله بشر.. وهو: العارفون بالله.

احمد بهجت

الحسن البصرى

بعدوفاة عمر بن عبدالعزيز عادت الخلافة سيرتها الأولي وأنشبت الجاهلية أظفارها فى المجتمع الإسلامى كما يقول الشيخ أبو الحسن الندوى.. وتسلل الترف إلى المجتمع الإسلامى، وراحت طبقة المترفين تنفذ سمومها فى جو الحياة.

وبدت طلائع هذه الفاجعة فى الأفق، والخلافة لاهية عنها ومشغولة بنفسها، بل إن الخلافة كانت السبب فى وقوع المشكلة وتفاعلاتها، ولو أرادت أن تمنع وقوعها لما استطاعت.

من هنا كانت الظروف مهيأة لظهور الحسن البصرى على المسرح.. ولد الحسن البصرى سنة ٢١ هجرية... وعن طريق الأب والأم كان بيت النبوة مفتوحا له.. كان أبوه يسار هو مولى زيد بن ثابت صاحب رسول الله ﷺ وكاتب الوحى ، أما أمه فهى مولاة أم سلمة زوج النبى

ﷺ ، وقد نشأ فى بيتها ولقى جماعة كثيرة من الصحابة وسمع منهم.

وقد جمع الله فيه من الفضائل والمواهب ما استطاع به أن يؤثر فى قلوب الناس وأن يرفع به قيمة الدين وأهل الدين فى المجتمع.

ويبدو أن قوانين الحياة تدفع الحياة لاختيار ما يصلح لها من البشر فى مواقف معينة تحتاج إليهم فيها ليلعبوا دورا من أدوارهم التاريخية ويصدوا هجوما أو يوقفوا انهيارا ما.

كان الحسن البصرى من هؤلاء الناس.. كان عميق الثقافة وقد درس عصره دراسة متأنية وأدرك روحه وعرف كيف تطور المجتمع.. ومن أين انحرف.. ولماذا انحرف.. وماهى نقط الضعف التى نفذ منها الأعداء والمخربون إليه.

أيضا كان دقيق الملاحظة للحياة ومختلف الطبقات الاجتماعية وعوائدها وأخلاقها وعللها.. تماما مثل أى طبيب نابه مارس العلاج زمنا طويلا.

وقد روى عنه قولهم : " ما رأينا أفصح من الحسن البصرى" كما قال عنه أبو حيان التوحيدى " كان من دراري النجوم علما وتقوى، وزهدا وورعا، وعفة ورقة، وفقها ومعرفة.. يجتمع حوله ضروب من الناس، هذا يأخذ عنه الحديث، وهذا يلقف منه التأويل، وهذا يحكى له الفتيا.. وهو فى جميع ذلك كالبحر اللجاج تدفقا وكالسراج الوهاج تألقا.

مقام الخوف

ماهو سر تأثير الحسن البصرى فى القلوب؟

ماهو سر سحره للنفوس؟.. وأخيرا ماهو سر خضوع الناس له؟

يكمن السر ببساطة فى أنه كان من كبار المخلصين.

كان إذا وعظ الناس لانت له القلوب الحجرية.. وذابت له العيـون. تحـدث يومـا فى مـوعظتـه عن المؤمنين والصحابة.. قال:

هيهات هيهات.. أهلك الناس الأمانى.

قول بلا عمل.. ومعرفة بغير صبر.. وإيمان بلا يقين..

مالى أرى رجالا ولا أرى عقولا.. وأسمع خصيصا ولا أرى أنيسا..

دخل القوم والله ثم خرجوا، وعرفوا ثم أنكروا، وحرموا ثم استحلوا.

إنما دين أحدكم لعقه على لسانه.. إذا سئل أمؤمن

أنت بيوم الحساب؟ قال نعم.. كذب ومالك يوم الدين.. إن من أخلاق المؤمن قوة فى دين، وإيمانا فى يقين، وعلما فى حلم وشفقة فى نفقة، ورحمة لمجهود، وعطاء فى الحقوق، وإنصافا فى الاستقامة.

المؤمن فى الصلاة خاشع وإلى الركوع مسارع، قوله شفاء، وصبره تقى، وسكوته فكرة، ونظره عبرة، يخالط العلماء ليعلم، ويسكت بينهم ليسلم، ويتكلم ليغنم، إن أحسن استبشر، وإن أساء استغفر..

كانت مواعظ الحسن البصرى تمس قلوب الناس، كان هو نفسه قد تربى فى مقام الغربة التى تستهدف الآخرة، وشرب أحزانا من سيدنا على زين العابدين.

يقول أبو طالب المكى فى قوت القلوب وهو يصف الحسن البصرى: "كان الحسن إذا أقبل فكأنما أقبل من دفن حميمه، وإذا جلس فكأنه أسير قد صدر الأمر بضرب عنقه، وكان إذا ذكرت النار عنده فكأنها لم تخلق إلا له".

كان الخوف من الله مقاما يقيم فيه العارفون بالله.

قال تعالى: "ولمن خاف مقام ربه جنتان"..

والحسن البصرى هو الذى ربط الخوف بكونه حالا فى مقام العلم تمكينا للوصول إلى اليقين.. "فاعبد ربك حتى يأتيك اليقين".. والطريق إلى اليقين يبدأ بالتوبة ويمر بالصبر والشكر والخوف والرجاء والتوكل وينتهى أخيرا بالمحبة.

وبسبب حياء الحسن البصرى من الله، وخوفه من أن يغضبه أو يعصيه، كان الرجل شجاعا مع البشر، لايخشى أن يقول كلمة الحق ولو ألقت به فى السجن.

شجاعة

روى لنا التاريخ طرفا من شجاعة الحسن البصرى، وحدثنا عن قيمته وسط علماء عصره، فالمعروف أن العلم ليس هو معيار القيمة النهائية، إذ يمكن أن يكون العالم عالما ولكنه يخفى علمه هذا، أو يتراجع به أمام الخطر، أو يوظفه فى خدمة الحكام الظالمين فى عصره، ومن ثم يصبح علما لاقيمة له، بل إن العلم هنا يصبح خادما يتبع الطاغية، بدلا من أن يكون سيدا يقود الحياة نحو العدل.

من أخبار شجاعة الحسن البصرى مارواه ابن خلكان عنه.. قال :

لما ولى عمر بن هبيرة على العراق وأضيفت إليه خراسان، وكان ذلك أيام يزيد بن عبدالملك واستدعى ابن هبيرة الحسن البصرى ومحمد بن سيرين والشعبى، وكان الثلاثة من علماء عصرهم المرموقين، وقال لهم إن يزيد خليفة الله! قد استخلفه على عباده وأخذ عليهم الميثاق بطاعته، وأخذ عهدنا بالسمع والطاعة، وقد ولانى ماترون

.. فماذا ترون؟

كان واضحا أن عمر بن هبيرة يريد أن يحصل من علماء عصره على موافقة أو إقرار بالظلم الواقع على العباد يومئذ.. نظر ابن سيرين والشعبى إلى بعضهما وأدركا الفخ وترددا فى الجواب ثم قالا أخيرا قولا فيه تقية.. قولا من النوع الذى يغمض عينيه عن الظلم القائم ويشيح بوجهه عنه ويتجازوه.

وبقى الحسن البصرى صامتا.

سأله ابن هبيرة: ماذا تقول ياحسن؟

قال الحسن البصرى " يا ابن هبيرة.. (لاتخف من يزيد أكثر من خوفك من الله) خف الله فى يزيد ولاتخف يزيد فى الله، إن الله يحميك ويمنعك من يزيد، ولكن يزيد لايمنعك ولا يحميك من الله.. إن الله يستطيع أن يبعث إليك ملكا يزيلك عن سرير الملك، ويخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك ثم لاينجيك إلا عملك.. يا ابن هبيرة إن الله جعل السلطان ناصرا لدين الله وعباده فلا تجعله أنت لهوى رجل فإنه لاطاعة لمخلوق فى معصية

الخالق.

كان ابن هبيرة ذكيا فهش لقول الحسن ولم يغضب أو تظاهر بأنه لم يغضب..

لم يكن الحسن البصرى من العلماء الذين يدارون أو يوارون إذا تعلق الأمر بالحقيقة العليا، كما كان ينطق بالحق مدركا أن الله تبارك وتعالى سوف يسند أصحاب الحق فى النهاية وسوف يكسبون النصر أو يفوزون بالشهادة.

كيف يمكن للإنسان أن يتخلى عن النصر والشهادة وهما معا قيمتان من قيم الأرض والسماء؟!.

هل انقرض النفاق ؟

نشـأت فى المملكة الإسـلاميـة بحكم نفـوذ الإسـلام السيـاسى والمادى طبقـة تدين بالإسلام، وتحمل أسمـاء مـسلمـة، ولكنهـا لاتهضم الإسلام، ولاتستـريح إليـه، ولاتفهم معنى لكل هذه الضجة المثارة حوله.

وقد شاع وجود هؤلاء فى أوسـاط الأمراء والأغنياء وفى دوائر الحكومة والجيش، وقد اعتقد بعض العلماء أن النفاق قد انقرض وأنه كان مرضا محليا مؤقتا اقتضته الظروف الخاصة بالجاهلية فى العصر الإسلامى الأول.. فلما غلب الإسلام وزالت شوكة الكفر لم يعد هناك معنى لوجود النفاق، لأن النفاق كفر يتدثر وراء أقنعة الإيمان.

ويختلف أبو الحسن الندوى مع تفسير هؤلاء العلماء لانقراض النفاق،ويرى أن النفاق علة قديمة من علل الفطرة البشرية، وهى علة يصاب بها ضعاف النفـوس فى كل عـصـر من العـصـور..ولا يولد هذا المرض فـحسب فى المجتمعات التى يتصارع فيها الإسلام والكفر، وإنما يولد

كذلك حيث يسيطر الإسلام ويحكم، فتوجد عادة طبقة لاتسيغ الإسلام لسبب من الأسباب، ولكنها لاتملك الشجاعة التى تحملها على إنكاره بوضوح وإعلان عقيدتها بصراحة، ومن ثم تخرج على الناس بوجه يخالف باطنها وحقيقتها.

ولهذا السبب وجد فى العلماء والمحققين من أثبت أن النفاق ظاهرة اجتماعية وعلة نفسية لاتنحصر فى زمان خاص أو مكان بعينه.

يقول شيخ الاسلام أحمد بن عبدالرحيم الدهلوى فى كتابه: "الفوز الكبير فى أصول التفسير" إن النفاق قسمان.. نفاق فى العقيدة. ونفاق فى العمل والأخلاق ، أما النفاق فى العقيدة فكان ممكنا وواقعا بعد عصر الرسالة، ولكنه لايمكن الجزم به بعد ذلك لانقطاع الوحى، أما نفاق العمل والأخلاق فكثير وشائع فى كل عصر من العصور، فإن أحببت أن ترى نموذجا لهؤلاء فعليك بمجالس الأغنياء وندمائهم، وسترى كيف آثروا هوى سادتهم على حكم الشارع.

ولقد كان من ذكاء الحسن البصرى وفطرته الدينية ـ كما يقول أبو الحسن الندوى ـ أنه اهتدى إلى أن النفاق مازال يعيش فى المجتمع الإسلامى، وأن لهم سيطرة على الحياة السياسية والاجتماعية فيها.

ومن هنا عرف الحسن البصرى عدوه، وعرف بالتالى كيف يحاربه ويكشف حقيقته.

وفاة الحسن البصرى

أدرك الحسن البصرى أن المجتمع الذى يعيش فيه يعرف النفاق، ومن ثم فقد وجه سهام نقده للنفاق.

وقد سأله يوما أحد الرجال مندهشا من حملاته على النفاق قال ـ أما زال هناك نفاق حتى اليوم يا أبا سعيد؟!

قال الحسن: لو خرجوا من أزقة البصرة لاستوحشتم فيها.

يريد الحسن البصرى أن يقول أن النفاق موجود فى البصرة، وأنه موجود بكثرة، إلى الحد الذى لو خرج المنافقون فيه من أزقة البصرة لأحس بقية الساكنين فيها بالوحشة والغربة.

كان يرى أن النفاق أغلبية، وأن الإيمان الحقيقى أقلية.

وكان يشير إشارات نارية إلى وجود النفاق

قال يوما: ياسبحان الله.. لشد مالقيت هذه الأمة من منافق قهرها واستأثر عليها (يشير بذلك إلى بعض الحكام والأمراء).

قال مرة وهو يتحدث عن الجيش الإسلامى يومئذ:

ـ لو خرجوا بكم ما انتصفتم من عدوكم (يريد أن يقول أن بعض قواد الجيش الاسلامى منافقون، ولو خرجوا للحرب لهزمهم العدو بذنوبهم لابقوته).

وهكذا ضرب الحسن البصرى على الوتر الحساس ونزل لأعماق المجتمع، ووصف أمراضه وعلله، وانتقده انتقاد الحكيم الرفيق، وعالجه علاج الطبيب الحاذق، ولقد كان عصره يمتلىء بالدعاة والوعاظ، ولكن المجتمع لم يخضع لأحد خضوعه للحسن البصرى، فقد كان يمس شغاف قلبه، ويعارض تيار الحياة المندفع فى اتجاه الهوى والشهوات.

ولم يكن الحسن البصرى يقتصر على الوعظ والخطب، إنما كان يعنى بتربية من يتصل به ويسمعه، فكان يجمع بين الدعوة والإرشاد والتربية، فاهتدى به خلائق لايحصيهم إلا الله، وكان من أثر هذا الإخلاص والتفانى فى الدعوة أن اجتمعت القلوب على حبه والاعتراف بفضله، فلما مات سنة ١١٠ هجرية خرجت البصرة كلها فى جنازته وهى تبكى، وكان ذلك بعد صلاة الجمعة،

واشــتــغل الناس بدفنه فلم يبق فى المســجـد من يصلى العصر، وقال القائلون يومئذ لانعلم أن صلاة العصر تركت فى الإسلام (يعنى فى جامع البصرة) إلا يومئذ!!!.

من الذى بدأ ؟

من الأسئلة التى تعرض للذهن البشرى السؤال التالى:
لماذا خلق الله العالم؟

إن المشهور المعروف عند البشر أننا لانتحرك حركة إلا بقصد المصلحة أو المنفعة أو الكسب..

وهذا الدافع لحركة البشر ليس هو الدافع للمشيئة الإلهية، بمعنى أن الله سبحانه يتعالى على الكسب والمصلحة والمنفعة..

لماذا إذن خلق الله الخلق وهو غير محتاج إليهم؟..

هدى الله الكريم عباده إلى السر فقال فى الحديث القدسى : " كنت كنزا مخفيا، فأردت أن أعطى فخلقت الخلق فبى عرفونى".

يعنى الحديث القدسى أن الله شاء ـ أن يتكرم بالعطاء والإحساس والمنح، فخلق الخلق وأنعم عليهم.

من هنا نفهم الحديث القدسى الذى يقول: " كان الإحسان قصدى من الخلق" إن الكنز الإلهى قد انصرف

للعطاء، فأظهر الخلائق وهم يحتاجون إليه وهو غير محتاج إليهم، وبعد إظهارهم من العدم وتكرمه بنعمة الحياة راح ينعم عليهم نعما لاتعد ولا تحصى.

من الذى بدأ بالحب..

الله أم الإنسان؟

إن الجواب أوضح من الإشارة إليه، إن الله هو الذى بدأ بالحب سبحانه، وهو الذى بدأ بالإيجاد والإنعام وهو الذى أحسن لجميع خلائقه..

من هنا نفهم قوله تعالى : والذين آمنوا أشد حبا لله.

إن الآية الكريمة تعنى أن حب الله تبارك وتعالى صفة من صفات المؤمنين، وغاية من غايات وجودهم.. ويستخدم النص القرآنى تعبير " أشد حبا لله" إشارة إلى عمق الحب وصفائه وخلوصه..

وقد روى عن رسول الله ﷺ أن قوما سألوه:

يارسول الله إنا نحب ربنا حبا شديدا.. فماذا نفعل؟

فنزل قوله تعالى: قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله)

وبهذا الرد صارت طاعة الرسول ﷺ علامة على صدق الحب لله عز وجل.

العقل والحب

تقوم العقيدة الإسلامية على جناحين هما العقل والحب. والحب نسيج أصيل من أنسجة الكون.

يحدثنا الله تبارك وتعالى عن غاية الخلق وهدف الخليقة بقوله سبحانه:

(وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين".

إذا كان الله قد خلق الخلق ليعبدوه، فهذا يعنى أنه منحهم مجد عبادته، والعبادة مجد ينصرف إلى البشر وإحسان صادر من الله.

إذا عرفنا أن عبادة العابدين لاتضيف إلى الله شيئا، وأن كفر الكافرين لاينقص من ملكه شيئا،.

إذا عرفنا هذا أدركنا عظمة الكنز الذى يمنحه الله لعباده، ومدى المجد الذى يضعه تحت أيديهم.

إنه يتكرم عليهم ويسمح لهم بعبادته.. والعبادة هى القرب.. وهى الحب.. أى أنه يدعوهم إلى القرب وإلى

الحب، ويبدأ هو بالحب بوصفه أكرم الأكرمين.

يقـول الله تبـارك وتعـالى عن سـبب الخلق: "كـان الإحسان قـصدى من الخلق" والإحسان الإلهى هو مجد العبادة الذى تكرم الله به على خلقه.

لقد أوجدهم من العدم، وصورهم فى الأرحام فأحسن صـورهم، ثم تعـهـدهم بالرعـاية والإكـرام ونعم لاتعـد ولاتحصى.

لم يطلب عـبـادتهم لتكون ردا على نعـمـه، لأن أية عبادة لاتفى بحق النعم، إنما طلب أن يعبدوه لأن عبادتهم له مجد يضاف إليهم وإحسان شاءه الكريم لهم..

هو المتصدر فى المبتدأ والخبر، وهو المنعم فى البداية والنهـاية، وهو الرزاق فى الدنيـا والآخـرة، وهو الغـفـور الرحيم لذنوب خلقه، وهو المتعطف عليهم برحمات الدنيا ورحمات الآخرة.

ولقد فسر ابن عباس رضى الله عنهما العبادة بالمعرفة، فـقـرأ الآية هكذا" ومـاخلقت الجن والإنس إلا ليعرفون"والمعرفة أشمل من العبادة وأعم، وهى تقود إلى

المحبة فى النهاية .. والمحبة أخص من المعرفة وأرقى..
هى سر من أسرار المعرفة والهدى..

متى يولد الحب ؟

يرى ابن القيم أن الله قد خلق العالم ليعبده العالم،وهذا فضل من الله يسبغه على العالم..

ويعتقد محيى الدين بن عربى أن الله قد خلق العالم، ليقدم العالم حبه إلى الله..

لماذا يريد الله منا أن نحبه..؟

لايطلب أحد من أحد أن يحبه إلا إذا كان يسبقه بفضل الحب.. فما بالك برب كريم له فضل الخلق ابتداء وله فضل الإيجاد والإنعام والبعث انتهاء. الفرق بين حب الله لنا وحبنا البشرى لامرأة أو زهرة أو كتاب، أننا نكمل أنفسنا الحائرة حين نحب، ونحقق ذواتنا الناقصة حين نحب، ونحتاج إلى من نحب ولهذا نحب..

أما الله.. فيتعالى على هذا كله سبحانه..

معنى الحب فى حق الله عز وجل هو العطاء بغير حساب وهو الرحمة بلا حدود.. وهو الحنان بلا توقف.

"ن. والقلم ومايسطرون"

لماذا يقسم الله تعالى بحرف وقلم وسطر من الكلمات؟

نقول لكم لماذا.. لأن حرفا واحدا يمكن أن يقود الإنسان إلى الله.. مجرد حرف واحد..

لو فكر الإنسان فى قدرة الله الممثلة فى خلق الحروف.. وخلق الكلمات.. وجعلها رموزا وإشارات.. وجعلها خطوطا تحتوى داخلها على الكون الأكبر كما تحتوى الذرة على نظام المجموعة الشمسية.

إن الحرف يملك القدرة وهو يمشى على الورق أن يعبر عن ملايين الصور والأحلام والدهشة والاكتشاف..

لو فكر الإنسان فى هذا كله لعرف لماذا يقسم الله بالحروف، ولماذا يورد هذه الحروف فى بداية سور القرآن.. إن الفرق العظيم بين الإنسان والسلم الحيوانى كله هو الحروف، وظيفتها فى عالم الإنسان وانعدامها فى عالم الحيوان.. تتفاهم الحيوانات فيما بينها بلغة خاصة، غير أنها لغة غير مكتوبة.

عندما تكتب اللغة وتولد الحروف تومض أضواء الحضارة وتنشأ العلوم والآداب ويولد الحب.

فن أم إحساس

تقوم حضارة الغرب التى نعيش فى ظلها وتتنفس قيمها على فكرة أن الحب هو أسهل شىء فى الدنيا.

وتتحدث هذه الحضارة عن الوقوع فى الحب، إشارة إلى أن الحب شىء يخضع للصدفة والمؤثرات، ويقع فيه الإنسان إن كان سعيد الحظ.. أيضا تربط هذه الحضارة بسبب مزاجها المادى ـ بين الحب والجنس فتعتبر ممارسة الحب ممارسة للجنس..

وهذا المفهوم الفاسد هو المسئول عن نسبة كبيرة من تعاسة النوع الإنسانى..

ولنبدأ البداية بسؤال يقول:

ـ هل الحب فن أصيل أم مجرد إحساس عابر....؟

إذا كان الحب مجرد إحساس وقتى أو احساس مثير عابر فهذا يعنى استحالة مناقشته أو التعرض له، لأن الأحاسيس تتوقف على المؤثرات المجهولة، ودراسة شىء مجهول لن تؤدى لنتيجة.

إن الدراسات الحديثة فى علم النفس تكشف أن الحب

فن، هو فن معقد كفن الجراحة أو الموسيقى أو التدريس أو الكتابة للمسرح، فن يحتاج إلى المعرفة والجهد والإخلاص، ومن الخطأ البالغ أن ننظر إلى الحب على أنه شيء ننتظر الوقوع فيه أو العثور عليه..

الحقيقة أن الحب وظيفة إنسانية.. هو فن معقد كالحياة سواء بسواء، ولعله فن أصعب من الحياة قليلا، لأنه ملح الحياة التى تفقد مذاقها لو ضاع.. ماهو أسلوب تعلم أى فن؟

هو المعرفة النظرية أولا ومعرفة التطبيق ثانيا.. إن طالب الطب يتعلم عديدا من الحقائق عن الجسم الإنسانى والأمراض المختلفة، بعد هذه المعرفة النظرية يحتاج إلى طريق طويل من ممارسة العلاج ومزاولة الطب نفسه، حتى يجىء الوقت الذى تصير فيه المعرفة النظرية والمران العملى وحدة لاتنفصل.. ساعتئذ يملك الإنسان فنه، ولكنه لايصبح سيدا فى فنه إلا إذا توفر عنصر ثالث.. هذا العنصر هو التفانى المطلق والاهتمام البالغ وحب هذا الفن بحيث لايصير فى العالم كله شىء أهم عنده من تعلم الطب وممارسته.

الوعى الإنسانى

من المدهش أن الناس تنفق الجهد والمال لتعلم الموسيقى أو الطب أو الصناعة أو التدريس أو الكمبيوتر ، وهذه كلها فنون، ولكنها لا تحاول تعلم الحب، رغم أنه فن من الفنون..

والسر فى ذلك أن هذه الفنون فى حضارتنا المعاصرة تقدم عائدا مجزيا ، أما الحب فكل عائده يرجع إلى الروح ، وليست الروح فى حضارة الغرب المعاصرة فى أهمية الصناعة أو الكمبيوتر أو التقدم المادى أو الرفاهية.. الحب فن إذن.. ولكنه فن مظلوم ومضطهد ، رغم كل أغانينا عنه أو ذكرنا له..

والحب فن يرتبط بالمعرفة النظرية كما يرتبط بالعمل..

الذى لايعرف شيئا لاقيمة له.. عنده ومن الصعب على من فقد القيمة أن يحب، لأن الحب هو الحجر الأخير فى هرم القيم.. ومن الصعب أن يوجد الحجر الأخير والهرم نفسه غائب.

إنما يقدر على الحب من يقدر على الفهم والملاحظة والرؤية والإحساس والذوبان والعطاء، وكلما زاد ميراث الإنسان من المعرفة زادت قدرة القلب الإنسانى على الحب.. ذلك أن من قوانين الحب أنه عطاء،ولكنه عطاء يحسب فيه من يعطى أنه يأخذ..

والعطاء يحتاج إلى رقى فى الإنسان، لأن معظم الخلق يحبون أنفسهم فقط، وإنما يبدأ الانسان بالخروج من ذاته وحب الآخرين كلما ارتقى علمه ونضجت شخصيته ورق وجدانه، وأى نظرية عن الحب يجب أن تبدأ بنظرية عن الإنسان، عن الوجود الإنسانى.. إن الإنسان جزء من الطبيعة، جزء من الماء والمعادن والتراب، ورغم ذلك فهو ليس طبيعة وليس أرضا، إنما هوكائن جديد فيه هذا الحنين إلى الأرض الأم، وفيه فى نفس الوقت هذا البعد الهائل عن الأصل الذى جاء منه..

الإنسان حياة تعى أنها حياة..

هذا الوعى بالذات والآخرين والماضى والحاضر والمستقبل سمة من سمات الإنسان .. وجزء من طبيعة

تكوينه العقلى. ومن هذا الوعى تولد القدرة على الحب..
وبغير هذا الوعى لايختلف الإنسان عن كائنات السلم
الحيوانى.

تجربة الغربة

الفرق بين الإنسان والعناصر التى صنع منها هو الوعى .. وقدجاء هذا الوعى من النفخة الإلهية.. وهى نفخة الروح التى صعدت به لمرتبة الكائنات العليا التى يصدق عليها وصف الخلافة فى الأرض.. الإنسان إذن حياة تتسم بالوعى..

يعى الإنسان أنه حياة منفصلة عن حياة الكون والخلائق، يعى أن عمره قصير على الأرض، يعى أنه جاء إلى الحياة قادما من العدم، جاء على غير إرادته، وسيذهب عنها بغير استئذانه.

يموت الإنسان أمام أحبائه فلا يستطيعون له شيئا، ويموت أحباؤه أمام عينيه فلا يستطيع لهم شيئا..

هذه الغربة إزاء قوى الطبيعة والحياة.. تجعل وجود الإنسان سجنا لايمكن احتماله إلا بالحب.

يحدثنا علم النفس أن تجربة الغربة أو الانفصال توقظ القلق، وهى مصدر كل أنواع القلق.. فكون الإنسان منفصلا يعنى أنه مقطوع الجذور وغير قادر على ممارسة

قدراته كإنسان.

أن يكون الإنسان منفصلا يعنى أن يكون عاجزا، غير قادر على الإمساك بالعالم، غير قادر على الاتصال بالأشياء أو الناس، غير قادر على ممارسة نشاطه، وهذا يعنى أن العالم يستطيع غزوى بغير قدرة منى على الرد، وهذا يؤدى إلى الاحساس بالهزيمة.. ومن الهزيمة يولد الإحساس بالعار والذنب.

يرى علماء النفس أن أعمق حاجات الإنسان هى حاجته للتغلب على انفصاله، لأن الانسان إذا انفصل عن العالم فقد رؤية العالم، وزاد إحساسه بالغربة والرعب.. فهو يتوقع الهجوم عليه من عالم لم يعد يراه أو يتصل به، وليس هناك طريقة للاتصال بالكون والآخرين غير الحب..

أحب آدم حواء على الأرض.. وولد من حبهما النوع الإنسانى.. وبغير الحب تتحول الحياة إلى سجن انفرادى وعزلة قاسية.

ماهو موقف العقيدة الإسلامية من الحب؟ماهو مفهوم الحب عند هذه العقيدة؟

تربيته على الحب

لاتعرف عقيدة تربى أتباعها على الحب كالإسلام..

ربما كان المسلم لايتحدث كثيرا عن الحب، وربما كان لايستخدم الكلمة بوفرة فى أحاديثه، وربما كان لايقحمها على حياته، لأنه يعرف حقيقة الحب ويمارسه بنضج فى حياته اليومية..

إذا كان الحب هو الحل الوحيد أمام الإنسان ليخرج من سجن الذات إلى اتساع الكون ورحابة الآخرين.. فإن الحب ـ بأعمق من هذا المفهوم ـ جزء من أصول الإسلام وقواعده.

إن الإسلام يصل المسلم بالله أولا وأخيرا.. ومن ثم لا يكون المسلم وحيدا ولا غريبا وإن ترك على ظهر الأرض وحده..

يعرف المسلم أن الله تبارك وتعالى معه.. يصل الإسلام أتباعه بالله مباشرة.. بلا واسطة من كاهن أو حلقة اتصال..

يصلهم بخالق الكون ومصدر الإيناس والأمان، ويؤكد لهم أن الله لا يترك عباده المؤمنين وحدهم أبدا " وهو معكم أينما كنتم" هذا الاتصال أول شيء يتعلمه المسلم كمعرفة نظرية..

لقد بنى الإسلام على شهادة " أن لا إله إلا الله".

هذه الشهادة تعنى خروج الإنسان من غربته ووحدته واتصاله بالمشهود الأعظم.

والأصل أن الشهادة شهود ويقين.. فإذا شهد الإنسان أن له ربا يبسط عليه خيام المن الإلهى والرحمة، إذا أيقن الإنسان أنه ليس وحده فى الكون، إذا وقع هذا تحرر الإنسان من الغربة والخوف وتحررت طاقاته ومواهبه وصار حرا..

من أصول العقيدة الإسلامية أن يصلى المسلم خمس مرات فى اليوم، والصلاة هى التطبيق العملى للمعرفة النظرية التى تقولها شهادة ان لا إله إلا الله، والصلاة حركات يقوم بها المسلم، ومن خلال خشوعه يتم اتصاله بالله خمس مرات كل يوم، وأرحم ملوك الأرض وأعدل

حكامها لايستطيع أن يقابل رعاياه مرة فى الأسبوع، ولكن الله الرحيم العظيم القادر يقابل عباده كل يوم خمس مرات. وأرحم ملوك الأرض وأعدل حكامها يضيق بطلبات رعيته ويكره أن يسأل ، ولكن الله الكريم العزيز يحب أن يسأله الناس وأن يلحوا عليه.

عبادات حب

يحدثنا الله تبارك وتعالى عن وجوده الدائم فى معية العبد أن الله لايفارق الإنسان لحظة، ولو فارقه لحظة لانتهى الإنسان وضاع.. تماما مثلما أنه سبحانه لا يفارق الأكوان لحظة.

إنه يمسك السماوات والأرض أن تزولا.. وهو مع الإنسان فى نومه ويقظته، فى حياته اليومية وعبادته، فيما يقوله الانسان أو يصمت عنه.. لو كان الناس خمسة فالله سادسهم، ولو كانوا سبعة فالله ثامنهم.. وأى شأن يكون للإنسان فالله تبارك وتعالى معه بالحفظ والرعاية والحب والرحمات..

والشهادة فى الإسلام شهود لله واعتراف به..

والصلاة فى الإسلام اتصال بالله وتطبيق عملى على الحب، ولقد قيل فى الأثر: من أراد أن يكلم الله فليصل.. ومن أراد أن يكلمه الله فليقرأ القرآن..

أما الزكاة فى الإسلام فهى سلوك اقتصادى ينطوى

على فعل من أفعال الحب، وهو فعل هدفه انتشال الفقراء من الفقر وإسعادهم بالحياة الكريمة.

والصوم فى الإسلام امتناع عن حاجات الجسد للطعام والشراب حبا فى الله وطاعة لأمره وتكريما لمناسبة نزول القرآن على رسوله ﷺ.

والحج فى الإسلام تعظيم لشعائر أقامها إبراهيم خليل الله تعالى وحبيبه، وإحياء شعائره إحياء لشعائر حب الإنسان لله.. وحين يجىء العيد ويحتفل المسلمون بذبح الأضاحى يحتفلون فى نفس الوقت بقصة النبى الذى رأى فى المنام أنه يذبح ولده فأسرع بالطاعة.. وكانت طاعته إشارة إلى أن المسلم هو الذى يحب الله أكثر مما يحب نفسه وأبناءه.

وأى تأمل للعقيدة الإسلامية يوحى أنها تقوم على الحب، نوع من أرقى أنواع الحب وأعظمه.. حب الله تعالى.. وحب الأكوان.. وحب الإنسان والحيوان والنبات..

حتى الجهاد فى الإسلام ينطوى على لون من أعظم

ألوان الحب، إذ يعتبر المسلم نفسه مسئولا عن المستضعفين فى الأرض من الرجال والنساء والولدان.

باختصار ينطوى الإسلام على طاقة من الحب تستطيع تحقيق المعجزات.

وضع المسلم

تقوم العقيدة الإسلامية على حب الله للإنسان..

فالله هو الذى خلق الإنسان بيديه، وهو الذى نفخ فيه من روحه وهو الذى أسجد له الملائكة سجود تكريم لا سجود عبادة، وهو الذى أسكنه الجنة، وهو الذى غفر له حين أخطأ وتاب، بل إن الله هو الذى علمه كيف يتوب.

(فتلقي آدم من ربه كلمات فتاب عليه.)

والله هو الذى أنزله إلى الأرض نزول كرامة لا نزول إهانة، "إنى جاعل فى الأرض خليفة".

والله هو الذى كرم الإنسان وفضله " ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم علي كثير ممن خلقنا تفضيلا".

فى مقابل هذا التكريم الإلهى والتفضيل.. نرى المسلم كخليفة لله فى الأرض يعتبر نفسه مسئولا عن الشر الموجود فى العالم، ومسئولا عن آلام النوع البشرى..

الأصل المفروض فى المسلم أن يقاوم الشر، وأن يقف ضد الألم ويحاربه.. وكل صور الألم كالطغيان والفساد

والخطايا هى معارك ينبغى على المسلم أن يرفع سيفه فيها.

إن الحكام الجبارين والطغاة يمنعون عن الناس ضوء الحقيقة، ويحولون بين الناس والاتصال بالله، ويقفون ضد رقى العقل البشرى وينتكسون به إلى عبادة الهوى والذهب والأوثان..

ولقد كان على الإسلام أن يرفع سيفه وقرآنه..

كان السيف هديته القاصمة للجبارين، وكان القرآن إيذانا بفتح النوافذ على شمس الروح..

هذا هو المسلم كما تصنعه عقيدة الإسلام.

إنه إنسان يحزنه البؤس الإنسانى أيا كان مصدره، ويحس بالعار عندما يرى أمامه تعاسة وإن كانت بعيدة عنه، ويضحى بنفسه وماله من أجل تقليل كمية الحزن فى العالم، المسلم مسئول عن النوع البشرى كله، إذا كان يملك القوة لتغيير الموقف رفع سيف الجهاد، فإن لم يملك القوة فعليه أن يدعو للناس جميعا بالهداية ويصلح نفسه..

فرسان الإصلاح

يبــدو التــاريخ الإســلامى لمن يقــرأه سلسلة من الابتلاءات والمحن والخروج على روح الدين الصحيح..

وهذا أمــر طبــيــعى، لأن الانسـان يملك أن يختــار، وأحيانا ـ بسبب ضيق أفقه وتسرعه ـ يختار الإنسان الدنيا ويقدمها على الآخرة، وأحيانا يغفل الآخرة ويقصر نشاطه على الدنيا ، وحين تتصاعد الأزمة ويبدو أن الأمور قد تدهورت إلى الحد الذى صار فيه الإصلاح حلما، حين يحدث هذا يظهر عادة من قلب الأزمات رجل يجدد للأمة دينها ويبث الدماء فى عروق فكرها ويعيدها إلى الجادة التى خرجت عليها..

وأسماء هؤلاء كثيرة...

هؤلاء هم فرسان الإصلاح.. وهم يظهرون عندما يبلغ اليأس من ظهورهم ذروته..

من هؤلاء حجة الإسلام الإمام الغزالى الطوسى.. ولننظر فى شكل الحياة قبل ظهوره..

كانت مدرسة الأشعرى الفكرية قد هيمنت على العالم الإسلامى ومناهج التعليم والحياة الدينية ، ولكنها فقدت حيويتها ونشاطها الفكرى وبدت عليها آثار الشيخوخة والإعياء.. طوال حياة أبو الحسن الأشعرى، استطاع الرجل أن يكسب النصر للسنة، وأن يدافع عنها، وأن يهزم المعتزلة فى معارك العلم والعقل، ولقد كانت هزيمة المعتزلة، وهم أصحاب الجناح العقلى فى الإسلام، ضعفا للفكر الإسلامى رغم أنها كانت هزيمة يستحيل ردها أو التجاوز عنها..

بعد موت الأشعرى ضعف تيار الاعتدال والتوفيق الذى كانت تمثله هذه المدرسة...

لم يكن هذا الضعف هو الذى أصاب المجتمع الإسلامى وحده، إنما أضيف إليه ضعف من لون آخر..

لقد تدهور علم الكلام وشاعت فلسفات غريبة لم تكن كلها فى صالح الفكر الإسلامى.. وزاد التدهور حدة..

مشكلة الفلسفة

كان الخليفة المأمون من هواة الفلسفة..

وكان يشترى الكتاب المترجم بالذهب، وشجع توجيه المأمون على ترجمة كتب كثيرة فى الفلسفة..

كانت هذه الكتب تترجم من اليونانية والسريانية والفارسية، وكان أكثرها لأرسطو..

ونحن نفرق اليوم بين كتب الطبيعة والرياضة لفلاسفة اليونان، وكتبهم فى الإلهيات والميتافيزيقا..

إن كتب الرياضة والطبيعة كانت كتبا مفيدة للفكر الإسلامى، أما كتبهم فى الإلهيات والميتافيزيقا فكانت كما يقول أبو الحسن الندوى - هى وثنيتهم القديمة وعلم الأصنام عندهم، وهى وثنية تعارض التوحيد ، وتحل محل عقيدة الصفات الإلهية، وتشتمل هذه الفلسفة التى بهرت المسلمين وتسلطت على عقولهم من غير حق ولا جدارة، على ظنون وتخمينات وطلاسم لفظية لا حقيقة لها ولا معنى ولا وجود لها فى الخارج..

ويتفق معظم علماء التاريخ والدعوة الإسلامية على أن الأمة كانت فى غنى عن الاشتغال بهذه الفلسفة الخرافية..

ولقد كان من سعادة الفلسفة اليونانية وحسن حظها أن رزقت عقولا ذكية تطوعت لنشر الفلسفة وشرحها كيعقوب الكندى والفارابى وابن سينا وكان هؤلاء فى حماستهم فى الدفاع عن هذه الفلسفة وتمجيدها وتقديسهم لأرسطو لايقلون عن فلاسفة اليونان وتلاميذهم، ولكن المشكلة أنهم كانوا يجهلون اللغات التى ألفت بها هذه الكتب، وبالتالى لم يستطيعوا الانتفاع بمصادرها الأصلية مباشرة، فكانوا عيالا على من ينقلها لهم من اليونانية والسريانية، ووقعوا فى أخطاء وأوهام فى فهم مقاصد المؤلفين والفلاسفة اليونانية..

أيضا منعهم إجلالهم لأرسطو ـ وهو إجلال بلغ حد التقديس ـ أن يتناولوا أفكاره ونظرياته بالبحث والتحليل والنقد.. فأخذوها على علاتها، وعكفوا على دراستها وشرحها وبيانها.. وأضر هذا بالفكر الإسلامى أكثر مما

أضرت به حركة المعتزلة ، ذلك أن المعتزلة ـ رغم جموحهم العقلى ـ كانوا أصحاب طبيعة دينية، وكانوا يهدفون لنشر الإسلام، أما الفلاسفة فكانوا على النقيض من ذلك تماما..

مشكلة الباطنية

ازداد الناس إقبالا على الفلسفة وإجلالها لها، وازدادوا فى الوقت نفسه انصرافا عن الدين واستخفافا به..

وكما يرى أبو الحسن الندوى لم تعد هناك ناحية من مناحى الحياة الدينية إلا وتأثرت بهذا التحول الفكرى..

ونشأت مع الفلسفة وازدهارها فتنة جديدة كانت أضر على الإسلام وتعاليم النبوة من الفلسفة..

تلك فتنة الباطنية.

وقد شعر رجال هذه الفتنة أن الإسلام لايهزم فى ميدان الحرب، وأن المسلمين، وهم أصحاب عاطفة دينية قوية، لن تنفع معهم دعوة إلى الإلحاد السافر، فهذا يثير فى المسلمين غيرتهم ويبث فيهم روح المقاومة.. ومن هنا اختاروا للوصول إلى هدفهم أسلوبا لا يزعج المسلمين ولا يثيرهم.. ووقع اختيارهم على فكرة الظاهر والباطن.

لقد لاحظ الباطنية أن أصول الديانة الإسلامية وعقائدها وأحكامها عرضت فى إطار ألفاظ وكلمات تدل

عليها وتعبر عنها..

إن النبوة والرسالة والملائكة والشريعة والجنة والمعاد والحلال والحرام والصلاة والصوم، كلها ألفاظ تعبر بدقة عن مدلولاتها ولا مجال فيها لاضطراب أو اختلاف.

إذا نجح الباطنية فى الفصل بين الكلمات والمعانى فقد نجحوا فى ضرب الإسلام.. وصرف المسلمين عن دينهم..

وبدأوا بالقول بأن كل شىء له ظاهر وباطن، وشكل وحقيقة، وهذا الباطن أو هذه الحقيقة الباطنية لايعلمها إلا الإمام..

وبدأ سيل التأويل يصرف الكلمات عن معناها الظاهر إلى معان جديدة.. ولم يقتصر دعاة الباطنية على التمييز بين الظاهر والباطن ، وتفضيل الباطن، وإنما تدرجوا فى الاستخفاف بالمعانى الظاهرة حتى جعلوها موضع استهزاء وسخرية.. يتبرأ منه الإنسان وينأى عنه..

واستشرى التأويل وحملته الإسماعيلية وعمت الفتنة وتحكمت قواعدها فى الأرض.

الإرهاب والماسونية

استغلت الباطنية حب الناس الفطرى لآل البيت وكانت تنشر دعوتها باسمهم وتدعو إليهم لتجمع حولها القلوب..

ومع الوقت أصبحت الباطنية مؤسسة سرية لها جانبها المرهوب، ولجأت هذه المؤسسة إلى الإرهاب والاغتيالات والقتل، وصارت الحكومات الإسلامية الكبيرة تخشى إجرامها وسقطت عدة أسماء كبيرة صرعى عمليات الإرهاب التى قامت بها الباطنية، مثل الوزير نظام الملك الطوسى وفخر الملك وغيرهما من الشخصيات المهمة.

حتى جاء على المسلمين وقت كان القائد منهم أو الوزير أو العالم لا يعرف إذا نام فى الليل هل يأتى عليه الصباح سالما، أم يغتاله المجرمون أثناء الليل.. وكتب ابن الجوزى يقول:

"استفحل أمرهم بأصبهان، وكان الإنسان إذا دنا وقت العصر ولم يعد إلى منزله، يئس أهله من عودته.. هذا عدا مادسوه فى العلم والأدب وتحريف للأصول والمحكمات

ونشر للإلحاد والتطرف فى الاعتقاد.. وفى القرن الرابع الهجرى ، وهو قرن بلغ فيه الاضطراب الفكرى والسياسى ذروتهما ، نشأت جماعة سرية هى الماسونية، وكانت الجماعة تجمع مزيجا من الفلسفة اليونانية والعقيدة الباطنية، وتحمل اسم "اخوان الصفا وخلان الوفا " وكان أصحابها متأثرين بالأفلاطونية الحديثة والفيثاغورسية الجديدة، وكانوا يريدون وضع مذهب جديد للناس، يجمع بين إلهيات اليونان ونظريات فلاسفتهم وعقيدة الشيعة الإسماعيلية، وقد وصفهم أبو حيان التوحيدى بقوله فى كتاب "الإمتاع والمؤانسة":

ـ كانت هذه العصابة قد تصافت بالصداقة، وأجمعت على النصيحة فوضعوا مذهبا زعموا به أنه يؤدى لرضوان الله، وذلك بأنهم قالوا إن الشريعة قد دنست بالجهالات، واختلطت بالضلالات، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة.. وكانوا ينكرون بعث الأجساد ، ويفسرون الجنة والنار تفسيرا يختلف عن تفسير المسلمين، وينكرون الشياطين على الصورة التى يفهمها المسلمون، باختصار كان كفرهم مزيجا من حكمة الفلاسفة وشعوذة الكهان وأفاعيل السياسة ـ

دور مطلوب

لم تكن هناك أهمية حقيقية لرسائل إخوان الصفا، ولولا الاضطراب الفكرى الذى ساد القرنين الرابع والخامس الهجريين ، وهو اضطراب كان ينطوى على إجلال الفلسفة واحترامها، لولا هذا كله لما كان لهذه الرسائل شأن، ولما استحقت أن يتناقلها المعتزلة ويتدارسوها ويحملوها معهم سرا إلى بلاد المعتزلة.

كان إخوان الصفا يعتقدون أن رسائلهم محاولة جديدة للحلول محل الشريعة الإسلامية التى أصبحت عتيقة ولا تؤدى مهمتها.

وقد باءت محاولتهم بالفشل..

وقد حاول العلماء تفسير هذا السلوك منهم، فقيل أن طموح هؤلاء لتكوين دولة، وسط الاضطراب القائم يومئذ، هو السر وراء محاولاتهم..

لقد نظروا إلى سيرة الرسول ﷺ ، ورأوا كيف نجح فى تأسيس دولة وإقامة حضارة فقالوا ولماذا لانفعل مثلما

فعل، ونسوا أن الرسول كان يوحى إليه من الله، وأنه كان صاحب الرسالة الإلهية الأخيرة التى نزلت على الأرض..

ورغم نجاح الباطنية فى إقامة دولة، إلا أن هذه الدولة كان محكوما عليها بالانهيار والتلاشى..

ولقد كان موقف العالم الإسلامى فى القرن الخامس يثير الأسى والحزن.

لقد تكالبت على إضعافه الفلسفة والمذاهب الباطنية، ونجحا فى إحداث بلبلة فكرية قادت إلى الإلحاد فى العقيدة والتدهور فى الأخلاق والاضطراب فى السياسة..

وبدت الحاجة ملحة إلى شخصية تتصدى لهذا كله.

شخصية تعرض الإسلام عرضا عقليا تدحض معه حجج الفلاسفة والباطنية ، وتستطيع أن تتصدى للفلسفة والباطنية معا وتبين عوارهما وتقوم بنقدهما نقدا يوقف خطرهما الداهم.. وفى أحرج موقف وأدق ساعة.. ظهرت شخصية الغزالى على المسرح فى منتصف القرن الهجرى الخامس، وهى الشخصية التى قدر لها أن تلعب دورها على مسرح الأحداث وأن تدفع عن الدين هجمات المهاجمين.

الغزالى وكتبه

فى مقاطعة فى خراسان شمال شرق إيران ولد محمد أبو حامد الغزالى فى مدينة كابران ناحية طوس.

جاء ميلاده سنة ٤٥٠ هجرية.

كان أبوه فقيرا صالحا يأكل من كسب يديه، ويعيش على غزل الصوف، ويطوف على الفقهاء ويحضر مجالسهم ويكرمهم قدر استطاعته ، وكان يسمع كلامهم فيرق قلبه بالبكاء ويتضرع إلى الله أن يرزقه ابنا وأن يجعله فقيها.

وقد استجاب الله لدعوته.. ورزقه ابنا سوف يحمل لقبا ذات يوم لم يحمله فقيه من فقهاء الإسلام..

لقب حجة الإسلام .. سيصير هذا الابن هو الفارس المدافع عن الإسلام ، وسيصير مسئولاعن تصحيح العقائد الزائغة والوصول إلى الحقيقة الواضحة..

حين حضرت والده الوفاه تركه وشقيقه مع قدر يسير من المال فى رعاية صوفى من أصدقائه، وأنفق الصوفى

عليهما المال حتى نفد، ثم أنفق عليهما بعض ماله حتى نفد، وتعذر عليه القيام بقوتهما، فحدثهما أن يذهبا إلى المدرسة وأعلن لهما عن فقره، وكانت المدارس يومئذ تعطى لطالب العلم مالا يعينه على الدراسة والحياة..

وفعل الغزالى ذلك وفعله شقيقه، وإن سكتت المصادر بعد ذلك عن شقيقه فلم نعرف ماذا جرى له..

قرأ الغزالى فى صباه طرفا من الفقه ببلده على يد الراذكانى، ثم سافر إلى مدينة جرجان حيث درس على يد الأمير أبى نصر الإسماعيلى، ثم رجع إلى بلده طوس، وأثناء رجوعه وقع له حادث كان نقطة تحول فى حياته..

لقد هاجمه اللصوص وأخذوا كل كتبه وأمواله، وجرى الغزالى وراءهم وقال: خذوا المال ودعوا لى الكتب، فهى علمى الذى أعرفه، قال له اللص وهو يضحك ساخرا: كيف تدعى أنك عرفت علمها وقد أخذناها منك فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم، أى علم هذا الذى يضيع لو أخذه الغير؟!.. ولقد تعلم الغزالى بعد ذلك أن يحفظ كل ما يدرسه أو يقرؤه حتى إذا هاجمه اللصوص لم يجردوه من علمه.

رئاسة العلم

تعلم الغزالى أن يحفظ علمه فى رأسه، لا فى الكتب، وذلك حرصا عليه من لصوص الكتب.. وهم لصوص لايقرأون الكتب، لكنهم يحرقونها للتدفئة فى الشتاء..

بعد هذا الدرس، ذهب الغزالى إلى نيسابور عاصمة السلاجقة ومدينة العلم بعد بغداد، ولازم إمام الحرمين وتعلم على يديه، وأظهر ذكاء وموهبة وقدرة على التحليل والنقد حتى قال عنه إمامه:

ـ الغزالى بحر مغدق.

ثم مات إمام الحرمين فخرج الغزالى قاصدا الوزير نظام الملك، ولم يكن عمر الغزالى قد تجاوز الثامنة والعشرين من عمره..

وكان مجلس الوزير مجمع العلماء وملاذهم كما كان مناخا تتم فيه المناظرات الفقهية والقضايا الكلامية..

وفى هذا المجلس أظهر الغزالى تفوقا وعلما حتى عهد إليه الوزير بالتدريس فى مدرسته "النظامية"، ببغداد..

وكان غاية مايطمح إليه العلماء فى ذلك العصر

ويتنافسون عليه أن يقوموا بالتدريس فى هذه المدرسة.

ووصل الغـزالى إلى التـدريس فـيـهـا وهو فى الرابعـة والثلاثين من عمره، وكان هو أول عـالم يتقلد هذا المنصب الرفـيـع فى هذه السن المبكرة،واسـتـمـر الغـزالى يقـوم بالتـدريس فى هذه المدرسـة.. وبلغت شـهـرته الآفـاق ، وارتفعت مكانته العلمية فى العالم الإسلامى كله، ووصل الرجل إلى أقصى مايمكن الوصول إليه من الرئاسة والمجد، واجتمع حوله العلماء وطالبو العلم.

وهكذا انتـهت إليـه رئاسة العلم فى العـالم الإسـلامى، وكان الظن أنه سيبقى فى مكانه فى حلقات العلم وجموع القاصدين إليه..

ولكن الغزالى لم يقنع بذلك..

إن قلقا داخله يحركه إلى البحث عن حقيقة لم يعثر عليـهـا بعـد.. لقـد نظر الغزالى بعـقله الناقـد فى أمـور المجتمع والحيـاة فـوجدها لاترضى أحدا.. إن الفـلاسفـة والبـاطنيـة وغيـرهم من الفـرق قـد احتلوا عـقـول الشبـاب وأفـسـدوها.. وبقى المسـرح مـهـيـأ لظهـور البطل الذى يتصدى لهذا كله.

دراسة للعلوم

فكر الغزالى طويلا فى رئاسته للمدرسة النظامية، كما فكر فى العلم الذى وصل إليه ووجد نفسه غير قانع..

كان الغزالى يواجه نقطة تحول فى حياته.

إنه يهفو إلى العلم اليقينى، وفى خلفية ذهنه وضع المجتمع الذى يعيش فيه، وهو يكتب فى مذكراته عن هذه الفترة فيقول:

"كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبى وديدنى من أول عمرى، غريزة وفطرة من الله وضعتا فى جبلتى، لا باختيارى وحيلتى، حتى انحلت عنى رابطة التقليد، وانكسرت على العقائد الموروثة على قرب عهد بسن الصبا".

ويحكى لنا الغزالى أن قلقه قد تصاعد إلى الحد الذى منعه فيه من التدريس وأخذ قلقه هذا شكل المرض..

وأدرك الغزالى بذكائه وحكمته أن هناك دورا مهما على مسرح الحياة ولكنه دور يبحث عن بطل..

كان المجتمع الإسلامى يضم أربع فرق رئيسية ... هم

المتكلمون (أصحاب علم الكلام) والباطنية والفلاسفة والصوفية.

وبدأ الغزالى يدرس هذه العلوم بحثا عن شفائه من قلقه فيها..

بدأ بعلم الكلام، فحصله ودرسه وطالع كتب أساتذته وهضم هذا العلم حتى ألف فيه .

كان رأيه فيه أنه علم لايعنى بمقصوده، ولا يجد فيه شفاء علته..

بعد علم الكلام أقبل الغزالى على دراسة الفلسفة اليونانية، وكانت تزعم يومئذ أنها هى الطريق الوحيد الموصل إلى معرفة الحق والسعادة واليقين..

ورأى الغزالى أنه لا يجوز له أن يرفض الفلسفة إلا إذا درسها وأحكم دراستها ففعل هذا كله..

لم يظلم الفلسفة ولم يشملها بلعناته شأن كثير من الفقهاء ورجال الفتوى، وإنما تناولها بالتحليل والتقييم ، وذكر أصناف الفلاسفة وأقسامهم، ومالهم وماعليهم، ومايمس الدين من آرائهم ومالا يمسه ويتصل به.. فكان أول عالم دينى يقوم بهذا التحليل.

درس الغـزالى أنواع الفلسـفـة ومـايتـصـل منهـا بالرياضـيـات والمنطقيـات، وأعطاهم حقـهـم فى ذلك، فهذه علوم لاتتصادم فيها الفلسفة مع الإلهيات، أما العلم الذى توقف عنده فكان علم الإلهـيـات فى الفلسفة.

يقـول الغـزالى: " أمـا الإلهـيـات فـفـيـهـا أكـثـر أغاليطهم، كمـا أنهم لم يقدروا على الوفاء بالبـراهين على ماشرطوه من المنطق، ولذلك كثر الاختلاف بينهم فـيـهـا ، ثم إنى لما فـرغت من علم الفلسـفـة وتحـصـيله وتفهمه، واكتشاف الزائف منه علمت أن ذلك غير كاف بكمـال الغـرض، وأن العـقل ليـس مـسـتـقـلا بالإحاطة بجـمـيـع المطالب ، ولا كـاشف للغطاء عن جـمـيـع المعضلات".

كان هذا رأى الغزالى فى الفلسفة..

بعد الفلسفة بدأ الغزالى فى دراسة الباطنية.وكان

شأنها عظيما فى عصره.. وهكذا قرأ كتبهم، وجلس مع أساتذتهم، ومحص أقوالهم عن الإمام المعصوم وأفكارهم حوله، وانتهى إلى نفس النتيجة التى انتهى إليها بعد دراسة الفلسفة..

لقد اقتنع أنه لا قيمة عند هؤلاء ولا طائل لكلامهم.. وليس معهم شيء من الشفاء المنجى من ظلمات الآراء.

لم يعد باقيا من فرق المجتمع بعد المتكلمين والباطنية والفلاسفة سوى الصوفية.. وهنا أقبل الغزالى على التصوف.. وكان هذا أمله الأخير فى الحصول على السعادة واليقين.

يقول الغزالى وهو يحكى مذكراته عن هذه الفترة..

"أقبلت بهمتى على طريق الصوفية، وعلمت أن طريقتهم تتم بعلم وعمل، وكان حاصل عملهم قطع عقبات النفس، والتنزه عن أخلاقها المذمومة، حتى يتوصلوا إلى تخلية القلوب من غير الله تعالى،ثم

تحليتها بذكر الله.

وكان العلم أيسر على من العمل ، فبدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل قوت القلوب، لأبى طالب المكى ـ رحمه الله ـ وكتب الحارث المحاسبى والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلى وأبى يزيد البسطامى ـ رحمهم الله ـ جميعا وغير ذلك من كلام مشايخهم.

قلق وتردد

بعد الغوص فى الصوفية ودراستها أعلن الغزالى رأيه فيهم.. قال: ظهر لى أن أخص خواصهم لايمكن الوصول إليه بالتعلم، بل بالذوق وتبدل الصفات..

ويشرح الغزالى الفرق بين العلم الذى يكتسبه الإنسان بالتعلم، والحال الذى يحققه بتصفية القلب من الأغيار والسوى (كل ماهو غير الله، وكل ماهو سوى لله).

ويصل الغزالى إلى حكمه عنهم فيقول:

"علمت يقينا أنهم أرباب أحوال لا أصحاب أقوال".

لقد وجد الغزالى ضالته أخيرا..

وجد ماكان يبحث عنه.

وبدأ صراعه بين نفسه وطموحه لمعرفة الحقيقة الكلية، وبين جواذب النفس والعلائق التى تشده بعشرات الأشياء، وتمنعه من التحليق عاليا والإبحار فى بحار الصوفية.

فى قطعة من أصدق اعترافاته عن حاله يومئذ

يقول الغزالي : " كان قد ظهر عندي أن لا مطمع لي في سعادة الآخرة إلا بالتقوى، وكف النفس عن الهوى، وأن رأس ذلك كله هو قطع علاقة القلب عن الدنيا.. والإقبال بكل الهمة على الله تعالى.. ثم لاحظت أحوالي..

فإذا أنا منغمس في العلائق ، وقد أحدقت بي من كل جانب، ولاحظت أعمالي، وأحسنها التدريس والتعليم، فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة في طريق الآخرة.

ثم تفكرت في نيتي في التدريس، فإذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت.. وأيقنت أنني أقف على شفا جرف هار، وأني قد أشرفت على النار.. في هذه اللحظات.. بدأ الغزالي يفكر في الخروج إلى الصحاري والجبال.. بدأ يفكر في الخلوة.. والعزلة..

ولكنه ظل مترددا فترة، يجذبه جاذب البقاء ويلوح له جاذب الخروج والعزلة.

لسانه معتقل

دار الصـــراع فى نفس الغـــزالى بين الخـــروج إلى الخلوة، والبقاء للتدريس .. وأسفر الصراع عن نتيجة مدهشة..

خرج الشيخ الغزالى يوما للتدريس كعادته.. هش تلاميذه له وهو قادم عليهم كما يفعلون كل يوم.

أخيـرا وصل الشـيخ وجلس على مـقـعـده وسطهم وجلسوا حوله ينتظرون أن يعلن لهم عن الدرس الذى ينوى الكلام فيه.

ولكن الشيخ ظل جالسا لاينطق بحرف واحد..

فى البداية احترم التلاميذ صمت الأستاذ ورجحوا أنه يفكر أو يرتب المعلومات فى عقله، ولكن الشيخ ظل صامتا..

بعد نصف ساعة أو أكثر تساءل أحد التلاميذ:

ـ ما بالك يامولانا.. فيم تفكر؟

استمع الغزالى إلى السؤال ولم يجب بحرف واحد..
نهض التلاميذوأحاطوا بالشيخ.

كان الشيخ يبدو عاديا وسليما وصحيحا، ولكن مع فارق واحد: أن لسانه معتقل، وبالتالى لايستطيع نطقا ولا شرحا ولا بيانا..

وعاد الشيخ الغزالى إلى بيته دون أن يؤدى درسه المعتاد فى المسجد.. وكان هذا خبرا طيرته الألسنة..

لم يكن هذا ماوقع للشيخ فقط.. إنما وقع له أمر آخر.

انصرفت نفسه عن الطعام تماما، لم يعد يأكل..
حاول أن يأكل ولكنه لم يكن يستطيع لا بالرغبة ولا بالفعل..

دعنا نستمع إلى مذكرات الغزالى عن هذه الفترة..
يقول الرجل: " لم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعى الآخرة قريبا من ستة أشهر، ثم جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار، إذا أقفل الله على لسانى حتى اعتقل عن التدريس.. فكنت أجاهد نفسى أن

أدرس يوما واحدا تطييبا لقلوب طلبة العلم الذين سافروا وجاءوا إلى، فكان لسانى لاينطق بكلمة واحدة.. حتى أورثت هذه العلة فى اللسان حزنا فى القلب، بطلت معه قوة الهضم والرغبة فى الطعام والشراب، فكان لايستساغ لى ثريد، ولاتنهضم لى لقمة".

إلى الخلوة

زادت حالة الشيخ الغزالى سوءا.

إنه لايتكلم ولا يأكل.. ويكتب فى مذكراته موقف الأطباء من مرضه.. يقول: "قطع الأطباء طمعهم من العلاج وقالوا ـ هذا أمر نزل بالقلب ومنه سرى إلى المزاج، فلا سبيل إليه بالعلاج إلا أن يظهر سر الهم الملم" حين وصل الغـــزالى إلى هذه النقطة.. أحس بعجزه، وسقط اختياره بالكلية.

هنالك لجأ إلى الله تعالى لجوء المضطر الذى لاحيلة له، فأجابه الذى يجيب المضطر إذا دعاه..

استقر رأيه أخيرا على الخروج.

قـــرر الإعـــراض عن الجـــاه والأمـــوال والأولاد والأصحاب والخروج إلى الخلوة، ولكنه كتم مقصده..

كان يقصد بلوغ الشام والخلوة فيها هناك.. ولكنه أذاع أنه فى طريقه إلى مكة.. حتى لايثور القيل والقال عن أسباب خروجه..

وكان خروجه هذا يبدو مثيرا لدهشة علماء بغداد الذين كان مبلغ علمهم يقف عند مجد التدريس فى بغداد..

خرج الغزالى من بغداد، وفرق ماكان معه من المال، ولم يدخر إلا قدر الكفاف وقوت الأطفال، ثم دخل الشام وأقام فيها قرابة سنتين، لم يكن له شغل فيها إلا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة، اشتغالا بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب لذكر الله تعالى.. كما حصله من علم الصوفية، فكان يعتكف مدة فى مسجد دمشق، يصعد منارة المسجد طوال النهار، ويغلق بابها على نفسه..

ثم رحل من الشام إلى بيت المقدس، كان يدخل كل يوم إلى الصخرة، ويغلق بابها على نفسه..

ثم تحركت فى نفسه الرغبة فى الحج والاستمداد من بركات مكة والمدينة، وزيارة رسول الله ﷺ .. بعد أن زار الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

أخيرا تحول الغزالى إلى صوفى كما أحب، ولكن دوره الأعظم كان ينتظره..

الدور الجديد

بعد رحلته الشاقة، التى استمرت عشر سنوات فى التجول والسفر والخلوة والاعتكاف، بعدها وجد الغزالى نفسه وأعلن عن رأيه النهائى فى الصوفية.

قال: "علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وعرفت أن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق.. إن جميع حركاتهم وسكناتهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به"..

انتهى الأمر والتحق الغزالى بالصوفية..

كان من المتوقع بعد هذا الالتحاق أن يظل الغزالى فى خلوته تتعاقب على قلبه الإشراقات..

ولكن المتوقع لم يحدث.

إن تركيبة رجل كالغزالى ليست هى تركيبة رجل خلق ليعيش فى الجبال والكهوف والمساجد والزوايا

وحده..

لقد حل الغزالى مشكلته الخاصة.. مشكلة علاقته بالله عز وجل، لقد أخلى قلبه مما سوى الله، ولكن عقله لم يزل مرتبطا بمشاكل العالم الإسلامى والمجتمعات الإسلامية..

لقد أصيب المجتمع الإسلامى بفساد الأخلاق، وشلل الفكر، وجمود العلم، وأغلق باب الاجتهاد.. وعولجت الفوضى بالجمود..

باختصار.. كان العالم الإسلامى فى حاجة لرجل يحارب الفساد، ويوقظ الفكر، ويبعث العلم.. ويصد عن الإسلام السهام التى كانت توجه إليه بقصد ودون قصد من علماء الكلام والفلاسفة والباطنيين، وتحرك الغزالى نحو دوره الجديد..

قال فى مذكراته: "رأيت نفسى مطالبة بكشف هذه الشبهات، وانقدح فى نفسى أن محاربة الفساد والرد على الفلاسفة والباطنية أمر محتوم ومتعين.. وقلت لنفسى: ماذا تغنيك الخلوة والعزلة، وقد عم الداء،

ومرض الأطباء وأشرف الخلق على الهلاك"..

بعد فترة تردد قصير.. اندفع الغزالى لأداء دوره الجديد الذى كان شاغرا وينتظره على مسرح الأحداث..

جهاد فى الله

خرج الغزالى من عزلته، وبدأ يزاول عمله فى التدريس والدعوة والتأليف والإصلاح.. صحيح أنه كان يفعل ذلك قديما، بحكم العادة، أو بحكم الوظيفة، ولكن موقفه اليوم يختلف..

إنه يفعل مايفعله كرسالة.. أصبح مايقوم به بأمر من الله.. وقد شرح الرجل الفرق بين الحالتين فقال:

"وأنا أعلم أنى ـ وإن رجعت إلى نشر العلم ـ مارجعت، فإن الرجوع عود إلى ماكان، وكنت فى ذلك الزمان أنشر العلم الذى به يكسب الجاه، وأدعو إليه بقولى وعملى، وكان ذلك قصدى ونيتى..

وأما الآن، فأدعو إلى العلم الذى به يترك الجاه، هذا هو الآن نيتى وقصدى وأمنيتى، يعلم الله ذلك منى، وأنا أبغى أن أصلح نفسى وغيرى، ولست أدرى أأصل إلى مرادى أم أموت دون غرضى، ولكنى أؤمن إيمان يقين ومشاهدة، أنه لاحول ولا قوة إلا بالله

العلى العظيم، وأنى لم أتحرك، ولكنه حركنى، وأنى لم أعمل، لكنه استعملنى، فأسأله أن يصلحنى أولا، ثم يصلح بى ويهدينى، ثم يهدى بى، وأن يرينى الحق حقا ويرزقنى اتباعه، ويرينى الباطل باطلا ويرزقنى اجتنابه".

بهذه الكلمات المضيئة بدأ حجة الإسلام أبو حامد الغزالى الطوسى جهاده فى الله.

رفض أن يرجع إلى بغداد ليمارس التدريس فى المدرسة النظامية التى كانت فخر النظام العباسى كله، ولكنه اعتذر وبقى فى طوس يدرس ويربى الطلبة.. ويشتغل فى وقت فراغه فى التأليف.. وقد ألف كتبا كثيرة مازال وهجها وصدقها ينفذ إلى القلوب ويحولها إلى الهدى..

ألف كتاب المستصفى الذى يعد من أركان أصول الفقه الثلاثة، وهى المعتمد لأبى الحسين البصرى، والبرهان لإمام الحرمين، والمستصفى للغزالى، وألف كتاب "إحياء علوم الدين" وتهافت الفلاسفة، والمنقذ

من الضلال وعشرات من الكتب التى كانت نقطة تحول نحو العقيدة الصحيحة.. ولقد درس الحديث فى نهاية حياته.. ولم يكن قد درسه قبل ذلك، ومضى يدعو الناس إلى الله ويدفع عن الإسلام كيد الكائدين.

هجوم على الفلسفة

حين نطلق كلمة حجة الإسلام تنصرف الإشارة مباشرة إلى الغزالى الطوسى، هو وحده الذى تطلق عليه هذه الكلمة.. وهو وحده الذى يستحق إطلاقها رغم كثرة من دافعوا عن الدين وصدوا عنه هجوم المهاجمين وكيد الكائدين.. وينقسم عمل الغزالى وتجديده فى أكثر من ناحية رئيسية.

هناك نقده للفلسفة ومناقشته لها ، وهناك تجديده لعلم الكلام الذى فقد حيويته، وهناك تصديه للباطنية وأصحاب الفرق الزائغة فى الإسلام، وهناك الحسبة على المجتمع الإسلامى المعاصر، والدعوة إلى سيادة الأخلاق السامية، والرقى الروحى، والتفتح العقلى، والتحلى بالحقائق، وتصفية القلب بالله، وإخراج السوى منه..

وقبل الغزالى، كانت الفلسفة تهاجم الإسلام، وكان المصلحون يدافعون عن الإسلام..

باختصار.. كان المسلمون يأخذون موقف الدفاع عن الإسلام، ويعتذرون عنه، وينفون التهم التى توجه إليه، ويحاولون تبرير موقفه..

ثم جاء الغزالى فتغير الموقف، صارت المبادأة بيده كما يقول العسكريون، أصبح هو الذى يهاجم الفلسفة فى عقر دارها، وأصبح هو الذى يغزوها فى مواطنها الأصلية..

ولقد كان الغزالى صاحب عقل ناقد جبار، فوضع عقله فى خدمة الهجوم على الفلسفة وبدأ فى تحليلها، ونقدها نقدا علميا يعتمد على فهمه العميق لها ودراسته المستفيضة لأفكارها وحججها..

وتهاوت قلاع الفلسفة أمام قلمه الجبار يوما بعد يوم،وتغير موقف الفلسفة، لم تعد هى التى تهاجم الدين، ولم يعد الدين هو الذى يقف موقف الدفاع، إنما انتقلت الفلسفة إلى موقف الدفاع، وانتقل الدين إلى الخطوط الأولى فى الهجوم..

وكان هذا أول انتصار للعقيدة الإسلامية.. لقد

زالت مهابة الفلسفة فى نفوس أتباعها، كما زالت سيطرتها على عقول الناس، ولم يتهور الغزالى فى نقد الفلسفة، فلم يهاجم مافيها من خير ينفع الناس، وإنما أبرز هذا وذاك، وهاجم مافيها من منطق فاسد وأفكار زائفة.. وكان أمينا ومحايدا ومنصفا فى نقده، ولهذا كسب الحرب.

تهافت الفلاسفة

كان الغزالى يؤمن أن المعارك يتم كسبها فى عقول المتحاربين أولا، قبل كسبها فى ميدان القتال..

وكان يعرف أن النصر يعقد ألويته لمن يعرف أكثر عن قوة عدوه.

وهكذا دخل معركته مع الفلسفة..

بدأ فى البداية بكتابه "مقاصد الفلاسفة".

لم يكن الكتاب هجوما على الفلسفة ، إنما كان بيانا لنظرياتها ومباحثها فى لغة سهلة واضحة.

كان قد لاحظ أن المباحث الفلسفية غامضة ومعقدة وليست فى متناول العامة، كما لاحظ أن كتب الفلسفة قد ألفت بلغة رمزية ومصطلحات غامضة، وكأن مؤلفوها قد تعمدوا ذلك، ليقيموا سياجا حول الفلسفة يقصيها عن تناول العامة.

ولذلك كتب كتابه الأول "مقاصد الفلسفة" ليكسر الاحتكار العلمى الذى أقامه الفلاسفة حولهم..

حين صارت الفلسفة مفهومة بكتابه، كتب كتابه

الثانى وهو "تهافت الفلاسفة" وكان الكتاب تحليلا نقديا للفلسفة.

وقد كشف فى تحليله ونقده أن القسم الأكبر من علوم الفلسفة ـ كالرياضيات والعلوم الطبيعية والمنطق ـ هى أمور برهانية لا يتعلق منها شىء بالأمور الدينية..

بعد نقد جميع فروع الفلسفة، والاعتراف بصحة بعضها وفائدته، انتهى إلى أن الالهيات فيها أكثر أغاليطهم، وبدأ تشريح أخطائهم وتفنيدها حتى انتهى من مهمته وخلع من الفلسفة هذه القداسة التى كانت لها، وشغلها بنفسها واطمأن على سلامة الإسلام منها، ولقد قال علماء الغرب أن الغزالى طعن الفلسفة فى الشرق العربى طعنة قاضية. وكاد نصيبها فى الغرب أن يكون كذلك لولا أن ابن رشد كتب نقدا لكتاب الغزالى بعنوان: " تهافت التهافت" وصار هذا النقد سببا فى إحياء الفلسفة قرنا من الزمان.

لم تكن هذه المعركة هى كل معارك الغزالى، إنما كانت أولاها فحسب.

معركته مع الباطنية

لم يقتصر الغزالى على معركته مع الفلسفة، وإنما دخل أهم معاركه مع الباطنية التى تذرعت بالفلسفة، وظهرت فى مظهر دينى وسياسى، فكانت أشد خطرا على الإسلام من الفلسفة.. فقد كانت الفلسفة تعيش فى عزلة عملية، وكانت قليلة الاتصال بالشعب والجمهور.

كانت كما يقول الأستاذ أحمد أمين كالسفارات الأجنبية، لاشأن لها بالسياسة الداخلية ولا شأن لها بالجمهور.

أما الباطنية فكانت تتسرب إلى المجتمع وتنفث سمومها فيه، ولم يكن هناك فى العالم الإسلامى فى نهاية القرن الخامس، من هو أجدر بالرد عليها من الغزالى؟؟.

فقد جمع الغزالى بين التضلع فى الفلسفة، والوقوف على لب التصوف، وعلم الباطن، وقد سبق له أن ألف وهو مدرس فى المدرسة النظامية، أكثر من كتاب فى الرد على

الباطنية.. وكان أحد هذه الكتب باقتراح من الخليفة المستظهر بالله، وقد سماه "المستظهرى".

وقد أظهر الغزالى فى حربه ضد الباطنية ذكاء ومقدرة، ونجح أن يقلب عليهم المائدة، ويظهر حججهم متهافتة وبلا أقدام..

أيضا لعب الغزالى دوره فى علم الكلام... وإليه يرجع فضل تجديد هذا العلم.

لم يكن الغزالى بمواهبه الناقدة وعقله القادر يستطيع أن ينقل كلام المتكلمين المتقدمين، أو يكون شارحا له فحسب، وإنما ظهرت شخصيته العلمية فيما يكتب ويؤلف ويفكر..

كان علم الكلام بعد معركته التى خاضها المعتزلة ضد أهل السنة قد وصل إلى حال من الضعف والجمود.

وقد حمل الغزالى عبء تجديد هذا العلم، واتهم فى محاولته هذه بالزيغ والضلال، ولكنه لم يعبأ بما يقال، ومضى فى طريقه يبحث عن الحقيقة، مدركا أن للحقيقة متاعبها وأعباءها الثقيلة.

يقول فى كتابه:"إلجام العوام عن علم الكلام": إن أدلة القــرآن مــثل الغــذاء، ينتــفع به كل إنســان، أمــا أدلة المتكلمين فهى مثل الدواء ينتفع به آحاد الناس، ويستضر به الأكثرون".

داعية إلى الله

أسفرت شخصية الغزالى فى نقد الفلسفة وعلم الكلام عن شخصية فريدة مستقلة التفكير، تمتاز بالاتزان العقلى وعمق النظر والقدرة على التحليل والنقد.. غير أن هذا الجانب كان واحدا من جوانب شخصيته.

لقد كان الغزالى من الدعاة إلى الله..

ولقد كان درة كتبه فى الدعوة إلى الله كتابه : "إحياء علوم الدين" وهو كتاب من كتب الإسلام المعدودة التى أثرت فى حياة المسلمين وتفكيرهم تأثيرا عميقا..

ولقد ظل الكتاب يسيطر على عقولهم ونفوسهم زمنا طويلا، ولا يزال نفوذه فى الأوساط الدينية رفيعا وبلا منافسة.

ولقد قال علماء عصره عنه أنه من أجل كتب

الإسلام، وأنه من أفضل تصانيفه المشهورة التى لم يسبقه إليها أحد، وقيل عنه أنه لو محيت جميع العلوم لاستخرجت من كتاب الإحياء.

ولقد كان النقد الوحيد الذى وجه للكتاب أنه اشتمل على أحاديث كثيرة ضعيفة، ومع ذلك، فإن نقاد الكتاب لم يهملوا تأثير الكتاب فى الأجيال المسلمة.

وقد كتب الغزالى كتابه هذا بعد أن خرج من بغداد فى طلب الحقيقة واليقين، واشتغل بالمجاهدة والعبادة والانقطاع عن الناس، ومرت به وتعاقبت عليه حالات من الخوف والرجاء، والزهد والتبتل، والمعرفة واليقين..

لهذه الأسباب كلها جاء الكتاب صورة لنفسية رجل يبحث عن الحقيقة، ويعثر عليها فى صفاء القلب وتخليته مما سوى الله.. ولم يكن هذا الكتاب وحده هو كل جهده فى الدعوة إلى الله، لقد مكث الغزالى يكشف علل المجتمع الإسلامى ويبين أمراضه الدفينة،

ويؤكد أن فساد الرعية ينبع من فساد الملوك، وأن فساد الملوك ينبع من فساد العلماء.. فلولا قضاة السوء، لقل فساد الملوك خوفا من إنكار العلماء والقضاة..

يقول الغزالى: إن الأطباء هم العلماء، وقد استولى عليهم المرض.. ومن ثم فقد أقبل الخلق على حب الدنيا، وعلى أعمال ظاهرها العبادة وباطنها المراءاة.

نظرية متكاملة

كانت للغزالى نظرية متكاملة فى الإصلاح.

إنه يرى أن المسئولية الكبرى فى الفساد تقع على عاتق العلماء ورجال الدين، فهؤلاء عنده، هم ملح الأمة.. فإذا فسد الملح فما الذى يصلحه، وهو يتمثل فى كتابه "إحياء علوم الدين" ببيت من الشعر يقول للعلماء:

يامعشر القراء ياملح البلد.. مايصلح الملح إذا الملح فسد؟!!.

ويكشف الغزالى عن وجود صلة مشتركة بين ظلم الملوك وفساد الرعية وضعف العلماء، أن الرعية تفسد بفساد الملوك، والملوك يفسدون بفساد العلماء، أما العلماء فيفسدون حين يقعون فى حب الدنيا وشباك الأمراء والحكام.

وهو يرى أن سيرة العلماء اختلفت فى الزمن القديم عن زمان عصره، قديما كان العلماء لا يبالون بسطوة

السلاطين، ويتوكلون على فضل الله فى حراستهم، كما أنهم كانوا يعتبرون الشهادة رزقا من الله، فلما أخلصوا النية كان لكلامهم أثر فى القلوب القاسية فأصلحها. أما الآن (يتحدث عن عصره) فقد قيدت الأطماع ألسن العلماء فسكتوا، وإن تكلموا لم تساعد أقوالهم أحوالهم فلم ينجحوا. وقد كانت الحكومات فى عصر الغزالى حكومات فردية مستبدة، وكان نقد السلاطين على سياستهم وتصرفاتهم المالية مغامرة قد تؤدى إلى السجن والإهانة، وقد تصل إلى النفى والقتل.. ورغم هذا كله فقد وجد الغزالى فى نفسه الشجاعة على نقد كل صور الانحراف فى عصره.

يقول فى كتابه "الإحياء" إن أموال السلاطين فى عصرنا حرام كلها أو أكثرها، وكيف لا؟! والحلال هو الصدقات والفىء والغنيمة، ولا وجود لها، وليس يدخل منها فى يد السلطان، ولم يبق إلا الجزية، وهى تؤخذ بأنواع من الظلم لايحل أخذها به.. فهم

يجاوزون حدود الشرع فى المأخوذ والمأخوذ منه.

ولايكتفى الغزالى بإبداء رأيه فى كتبه فى الحكام الجائرين، وإنما أبدى رأيه وجهر بالحق والنصيحة أمام الملوك كلما سنحت له الفرصة. قال يوما للسلطان سنجر ابن ملك شاه السلجوقى الذى كان يحكم خراسان من أدناها إلى أقصاها:

ـ " وآسفا.. إن رقاب المسلمين كادت تنقض بالمصائب والضرائب، ورقاب خيلك كادت تنقض بالأطواق الذهبية".

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين..

أحمد بهجت

رقم الإيداع ٩٨ / ١٤٠٤٣
977 - 220 - 151 - 8

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ - شارع نشاطى شبرا القاهرة
الرقم البريدى ــ ١١٢٣١